الجابري: ثورات الربيع العربي أثرت على سوق الكتاب

أعتقد أن المستقبل سوف يكون للكتاب الإلكتروني

لديَّ يقين بأن شبابنا العربي سوف يتصدر المشهد دائما

حوار – سحر العلي:

مجموعة النيل العربية هي إحدى الدور المصرية التي تساهم في إثراء المعرفة من خلال نشر الكتب العلمية والتعليمية والكتب الفكرية والأدبية.

نلتقي مع الناشر: محمد الجابري رئيس مجلس إدارة مجموعة النيل العربية.

✹من اللافت للنظر أن مجموعة النيل العربية اتجهت في الآونة الأخيرة نحو نشر الروايات، فما السبب في ذلك؟

منذ أن أُنشئت الشركة في يناير 1998، كان الهدف الرئيسي للشركة هو المساهمة في نشر الإنتاج الفكري والمعرفي في شتى المجالات مع التركيز على الإنتاج الأكاديمي والعلمي والبحثي الجاد خاصة المترجَم؛ حيث إن نسبة الترجمة بالشركة تمثل حوالي 90% من الإنتاج الإجمالي للشركة، ومن عدة لغات إلى اللغة العربية. ولكن مع تطور احتياجات القارئ العربي خلال الآونة الأخيرة - مع أحداث ما يعرف بثورات "الربيع العربي" في كثير من بلدان العالم العربي، وخاصة مصر - رأينا أن يمتد اهتمام الشركة إلى المجال التاريخي والسياسي والأدبي بكل أشكاله خاصة الرواية. وفعلاً ظهر الكثير من الشباب الذين استطاعوا وفي خلال وقت وجيز اقتحام هذا المجال الهام، فرأينا أن نكون جزءًا من هذه الحالة الثقافية الجديدة سواء بمصر أو خارجها. وقد بدأنا بالفعل تبني إنتاج مجموعة من الأعمال الأدبية المتميزة في مجال القصة والرواية مع بدايات عام 2014، عبارة عن عشر روايات. وحاليًا يجري في قسم الإنتاج بالدار تجهيز ما يقرب من أربعة أعمال أخرى جديدة. وهي لمجموعة من الشباب الذين يكتبون للمرة الأولى. وهذا يأتي في إطار مبادرة جديدة من الشركة لدعم الشباب في نشر وتوزيع أعمالهم الأدبية.

✹هل أثرت ثورة 25 يناير على سوق الكتاب في مصر؟

هذا السؤال له شقان: شق إيجابي والآخر سلبي

اسمح لي أن أبدأ بالشق السلبي: وهو عزوف كثير من الناس عن شراء الكتاب بشكل عام نظرًا لتردي الوضع الاقتصادي والأمني بمصر بعد الثورة؛ حيث أصبح الهم الأكبر للمواطن هو الحصول على رغيف العيش بالإضافة إلى الأمن. ولذلك، لا يُعتقل أن يقرأ الناس الكتب وبطونهم خاوية.. فالوضع الاقتصادي - بلا شك - أثر تأثيرًا كبيرًا على حركة بيع الكتاب بشكل عام، والكتاب العلمي والأكاديمي على وجه الخصوص، بالإضافة إلى إحجام المؤسسات عن الشراء أو تقليص ميزانيات الشراء. ويضاف إلى ذلك تردي الأوضاع ببلدان عربية أخرى تزامنًا مع الثورة المصرية مثل تونس وليبيا واليمن ثم سوريا وهي بلدان هامة جدًا في حركة شراء الكتاب بالعالم العربي؛ مما كان له أبلغ الأثر على مدخولات دور النشر المصرية.

أما الشق الإيجابي: فهو انتشار ظاهرة كُتّاب الروايات والقصص والأدب السياسي بشكل كبير خلال نفس الفترة.. وقد حققت إصدارات هذه الفئة من الكُتّاب لدى بعض دور النشر بعض الأرقام القياسية التي لم تحققها من قبل على الرغم من أن معظم تلك الروايات أو الأعمال الأدبية أو السياسية لكُتّاب شباب جدد.. أكثرهم يكتب للمرة الأولى. فهذه هي الظاهرة الإيجابية التي تُحسب للثورة وتُعدّ من ثمارها الطيبة في مجال النشر.

✹هل رصدت في السنوات الأخيرة ظاهرة عزوف الشباب عن الكتب العلمية وتوجههم إلى الكتب الأدبية وخاصة الروايات؟

من واقع المتابعة بالسوق المصرية والعربية، الرد هو "نعم". وهي إلى حد بعيد تعتبر ظاهرة إيجابية وهي مسألة القراءة بحد ذاتها، سواء أكانت قراءة أدبية أو علمية؛ حيث إن الكتاب العلمي في الأساس - للأسف - لا يقرؤه إلا من يحتاج إلى المعلومات العلمية، سواء لاستخدامها في دراسة أو بحث أو ما شابه ذلك. ولذلك، أرى أن الطرح الصحيح والواقعي لهذه الظاهرة يتجاوز تحليل قضية عزوف الشباب عن الكتب العلمية!! إلى رصد ظاهرة عودة اهتمام الشباب بالقراءة، حتى إن كان في مجال القصة والرواية. وهذا في حد ذاته يعتبر شيئًا إيجابيًا لأنه يمثل عودة الروح أو ميلادًا جديدًا لعادة القراءة لدى كثير من الشباب بعد هجران طويل امتد لعدة عقود بكل أسف.

✹هل تعتقد أن الكتاب الإلكتروني أثّر بشكل كبير على الكتاب الورقي؟

لا أستطيع الإجابة المطلقة بـ"نعم" أو "لا" لأن الأرقام والمؤشرات ودراسات السوق - للأسف - غير متاحة بشكل علمي دقيق ومتداول خاصة في منطقتنا العربية، بالإضافة إلى عدم وجود مرجعيات مؤسسية وبحثية ومعلوماتية للإجابة عن هذا السؤال بالدقة المطلوبة. ولكن يمكن القول بأنه توجد حركة أو اتجاه ما فيما يتعلق بحركة الشراء في مجال الكتاب الإلكتروني، إلا أنها ما زالت ضعيفة وغير ملموسة مقارنةً بالكتاب الورقي. وعلى الرغم من ذلك، أعتقد أن المستقبل سوف يكون للكتاب الإلكتروني. ولكن لا أعتقد أن ذلك سوف يكون قريبًا، ولكن ربما خلال عقدين من الزمان على الأقل بالنسبة لمنطقتنا العربية.

من الجدير بالذكر أيضًا أن الكتاب الورقي بالغرب وبالسوق الأمريكي والكندي ما زال موجودًا بشكل كبير وعلى نطاق واسع حتى وقتنا الحالي.

✹كناشر، ما هو دور المعارض الدولية في نشر المعرفة بين الشعوب العربية؟

المعارض - بلا شك - واحدة من الروافد الهامة لتعريف القارئ والباحث ومتخذ قرار الشراء أو الراغب في التعاقد بوجود الكتب التي يبحث فيها عن ضالته المنشودة، بالإضافة إلى معرفة كل ما هو جديد. ولكن تبقى دائمًا قضية التنظيم ومعايير مشاركة دور النشر الجادة التي تحترم حقوق الملكية الفكرية هي المشكلة الحقيقية التي تنال في أحيان كثيرة من أهمية وقيمة التواجد في أمثال هذه المعارض المهمة جدًا لأي ناشر عربي. وهذا هو دور الجهات المنظمة لتلك المعارض، بالإضافة إلى تفعيل وزيادة دور اتحاد الناشرين العرب جنبًا إلى جنب مع دور الاتحادات الوطنية في كل دولة عربية.

✹هل لعب الإعلام الجديد دورًا مهمًا في تحييد القراءة والكتاب؟

إذا كنت تقصد وسائل التواصل الاجتماعي العديدة والكثيرة التي لم تكن موجودة من قبل مثل فيس بوك وتويتر ويوتيوب وغيرها، بالإضافة إلى الأجهزة الذكية مثل الآي فون والآي باد والآي بوك والهاتف الذكي الذي أصبح وسيلة من وسائل التسجيل والتصوير والنقل الحي لكثير من الأحداث في لحظة وقوعها؛ مما ترتب عليه بروز فئة من المراسلين الصحفيين الهواة أو المتطوعين ينافسون المراسلين العاملين في الصحف والمحطات الإخبارية. وهو ما ساعد كثيرًا على تغيير اتجاه ونوعية الأحداث في حياة الشعوب خاصة في منطقتنا العربية. وقد تجلى دور الإعلام الجديد بوضوح شديد خلال "الثورات" التي اندلعت في منطقتنا العربية؛ حيث ساهمت مواقع التواصل الاجتماعي والأجهزة الذكية في تحريك الشارع العربي. وهذا - بدوره - أدى إلى إحداث حالة غير مسبوقة من الزخم المعلوماتي الذي ساعد بشكل كبير على إنعاش حركة الكتابة وشكلها بل ونوعيتها كذلك. وعندئذ، تفجرت ينابيع الموهبة الكامنة المكبوتة في وجدان العديد من الشباب الجديد الذي فرض وجوده في صدارة المشهد أثناء ثورات الربيع العربي. ولولا هذا الإعلام الجديد الذي ساعد على إحداث هذا التدفق المعلوماتي وحالة الجدل الشديد والآراء المتباينة بين جموع الشعب الواحد بل بين أفراد الأسرة الواحدة كذلك. ولولا هذه الحالة من الاستقطاب الحاد وتعدد الآراء على هذا النحو غير المسبوق لما استطاعت هذه الظاهرة الجديدة أن توجد وتتبلور في عالمنا العربي. وأعني بها ظاهرة الكتابة والقراءة من خلال كُتّاب شباب يكتبون لقراء شباب.

✹كيف تقيم الجدل الفكري والأدبي في الوقت الحالي؟

بصراحة.. الجدل الآن لم يعد جدلاً فكريًا أو أدبيًا خالصًا بأي حال من الأحوال بسبب وجود وسائل اتصال حديثة ذكية للتفاعل بين البشر جعلت من كل مواطن عادي يتصرف كما لو كان مراسلاً صحفيًا. ومن المعلوم للكافة أن شبكات ومواقع التواصل الاجتماعي ليس لها رابط أو ضابط، وكذلك المحطات الفضائية ذات الألوان السياسية والدينية والفكرية والعقائدية المختلفة... بل المتناحرة في كثير من الأحيان، التي اتخذت من تلك المواقع والوسائل منصات لإطلاق فكرها الهدام وفتاواها الباطلة بإهدار دم المخالف وتكفير المعارض وإقصاء الآخر. ولهذا، اختفى صوت العقل السليم وضل سعي الفكر المستنير عند الاختلاف مع الآخر. وربما بعد هدوء عاصفة الثورات العربية واستقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية بالمنطقة العربية يعود صوت العقل للبشر بحيث يمارسون الاختلاف والجدل، ولكن بشكل متحضر ينطلق من مقولة (اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية).

✹هل تجد من بين الشباب من سيقوم بدور رائد في عالم الكتابة؟

الرد بكل بساطة.. أكيد.. لأن نصف الحاضر للشباب وكل المستقبل للشباب. ومنطقتنا العربية مليئة وعامرة بالمواهب دومًا في كل المجالات. ولديَّ يقين - وليس أحلام يقظة - بأن المستقبل سوف يكون أفضل وبأن شبابنا العربي سوف يتصدر المشهد دائمًا. ليس فقط في مجال الكتابة، ولكن في سائر المجالات بإذن الله.

✹ما هي المعوقات التي تواجه الناشر العربي في نشر الكتاب في الوطن العربي؟

النشر أحد أصعب المجالات من الناحية الاقتصادية والتسويقية. ويرجع السبب الأساسي في ذلك لوجود نسبة أمية عالية ما زالت موجودة بعالمنا العربي. والأمية التي أشير إليها هنا هي أمية القراءة والكتابة، بالإضافة إلى الأمية الثقافية التي تتجلى في عزوف الكثير من المصريين والعرب عن القراءة. ويكفي للتدليل على ذلك المقارنة التي عقدتها إحدى الدراسات التي صدرت عن اليونسكو بين نسب القراءة عند المواطن الأمريكي والأوروبي والعربي؛ حيث أظهرت أن المواطن الأمريكي يقرأ في المتوسط حوالي 16 كتابًا في السنة، في حين يقرأ المواطن الأوروبي 12 كتابًا في السنة، أما القارئ العربي فيقرأ ربع صفحة في السنة!! وهذا يكشف - بكل أسف - عن الفارق الشاسع بين المواطن بالغرب والمواطن العربي. وهذا هو مكمن المشكلة؛ أي عدم وجود قارئ!! ولا شك أن هذا ينعكس سلبًا على حركة نشر وبيع الكتاب بالوطن العربي، بالإضافة إلى تعامل إدارات المعارض العربية والدول العربية ذاتها مع الكتاب باعتباره سلعة مثل باقي السلع من حيث أسعار الشحن والإعلان بالجرائد أو التليفزيون، وكذلك أسعار إيجار الأجنحة بالمعارض. هذا بالإضافة للرقابة على الكتاب في كثير من الدول العربية التي تفرض رؤيتها الخاصة فيما يتعلق بالسماح بالكتب التي تريد، ومنع ما لا تريد، ومصادرة بعضها الآخر، وضرورة الحصول على الموافقات الرقابية على أي كتاب حتى لو كان كتابًا علميًا بحتًا في مجال الفيزياء أو الكيمياء مثله مثل كتاب ديني أو سياسي. وهذا - بلا شك - يعرقل حركة نشر وتوزيع الكتاب بالعالم العربي، بالإضافة إلى الأسباب الأخرى التي ذكرتها آنفًا على سبيل المثال لا الحصر بالطبع.

✹كيف تقيّم أداء الناشرين ودُور النشر في الفترة الحالية؟

أستطيع أن أقول إن الناشر الآن "ينحت في الصخر" حتى يظل موجودًا في ظل الأوضاع المتردية في كثير من بلدان عالمنا العربي والتي أثرت - بلا شك - على الناشر وحركة النشر وبيع الكتاب بعالمنا العربي نظرًا لتراجع اهتمامات الناس عن الكتاب وصرفها إلى أمور أخرى أكثر أهمية من وجهة نظر المواطن - وله "كل الحق" طبعًا - كالحصول على الأمن والغذاء والعمل، خاصة في بلدان مثل تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا والسودان والعراق. وهي تشكل في مجملها أكثر من 75% من حركة النشر والبيع والشراء لسوق الكتاب بالعالم العربي.. كل ذلك - بلا شك - أثّر تأثيرًا بليغًا على أداء الناشرين ودُور النشر طوال فترة الثورة حتى الفترة الحالية.

✹مقولة كثيرًا ما يرددها الكتّاب العرب، وهي "أن الناشر يحصل على كل شيء من الناحية المادية بعكس الكاتب الذي يحصل على الفتات". ما رأيك في ذلك؟

لا أعتقد أنه يمكن تعميم هذه المقولة على كل الناشرين، بل أؤكد أنها حالات فردية يقوم بها قلة من الناشرين. ولذلك، لا يمكن تعميم ذلك الحكم على كل الناشرين.

بل الأهم من ذلك هو البحث عن إمكانية أو آلية تحقق تكاتف السلطات الأمنية والقضائية بالبلدان العربية لمحاربة ظاهرة التزوير والسرقات الأدبية والعلمية، التي انتشرت بالعالم العربي كله، والتي أتت - بالفعل - على القسم الأكبر من رصيد المداخيل التي كان من المفترض، بل من الحق أن تذهب إلى كل من الناشر والمؤلف على حد سواء!! وللأسف يدفع الثمن هنا بالدرجة الأولى "الناشر" الذي قام بتحمل أعباء الإنتاج بالكامل انتظارًا لساعة جني ثمار جهده واستثماره في أي عمل يقوم بنشره وتوزيعه. ولكن يأتي المزور ويأخذ كل شيء ولا يبقى - كما قلت في صدر سؤالك - إلا.. الفتات.. وفي هذه الحالة، يكون الفتات للناشر أولاً ثم للمؤلف ثانيًا!!

✹ما أصعب موقف تعرضت له دار مجموعة النيل العربية بعد الثورة في مصر؟

بصراحة، لم أتوقع أن الثورات العربية التي أتت لتغير الوضع السيئ إلى الأحسن، وتُنهي عصرًا أو عصورًا من الفوضى والمحسوبية وضياع الحقوق، وتبني دولة حديثة تعتمد على الجهد والعرق والعمل وإنكار الذات وإنهاء تلك الفوضى والمحسوبية والرشوة... ولكن - حتى اللحظة بكل أسف - كل ذلك لم يحدث، والحال يزداد سوءًا. وقد تعرضت مجموعة النيل العربية وما زالت إلى تأخر حقوقها لدى العديد من الجهات لدى بعض الدول العربية الشقيقة. وهي عن فترات وتوريدات قامت الشركة بتنفيذها بالكامل على أكمل وجه قبل الثورات العربية، ولم تُسدَّد حتى الآن. والسبب هو المساومة على حقوقنا وطلب الرشاوى في مقابل الوفاء بها.. للأسف!! فهل تلك تعتبر ثورات!! إنها فوضى.. وليست ثورة!! وهنا، أنا أتحدث عن أخلاقيات الناس وليس عن الثورة ذاتها.. فالثورة نبيلة.. ولكن البشر كما هم!!

إن الثورة لا بد أن تبدأ من داخل الناس أنفسهم أولاً.. حتى تؤتي ثمارها المرجوة. كل ذلك - بكل أسف - أدى إلى تحمل الشركة لخسائر فادحة منذ بداية الثورة وحتى الآن. ومن المؤكد أن هذا الموقف هو الأصعب.. بل التحدي الذي نسعى بكل ما أوتينا من قوة لتجاوزه بإذن الله.

✹ما المفاجآت التي تعدها مجموعة النيل العربية للقارئ العربي؟

لا نستطيع أن نقول مفاجآت.. فنحن لدينا مشروعات وبرنامج عمل نسير عليه بغض النظر عن الظروف الاقتصادية التي تمر به المنطقة العربية، خاصة مصر.

فمشروعاتنا الإنتاجية مستمرة بشكل طبيعي وطبقًا لبرامج الإنتاج السنوي للنشر في شتى المجالات العلمية والثقافية والأدبية والحمد لله.

ولكن يمكن القول إننا نسعى الآن إلى تبني المشروعات الأدبية لشباب الكُتّاب في مجالات القصة والرواية والشعر.

بالإضافة إلى فتح آفاق جديدة لأنشطة تُضاف إلى الأنشطة الأساسية للشركة تم تسجيلها بالفعل لدى الجهات الرسمية المختصة. وهي نشاط الترجمة الاحترافية للغير سواء لحساب الأفراد أو المؤسسات، ونشاط التدريب في كافة المجالات.. كل ذلك من خلال إدارتين تم استحداثهما بالشركة بقيادة محترفين، كلٌّ في مجاله، وبالتعاون مع صفوة الخبراء في كل مجال.

بالإضافة إلى ذلك تم التعاقد مع واحدة من كبريات شركات تطوير المواقع الإلكترونية لتطوير موقع مجموعة النيل العربية بحيث يكون موقعًا إلكترونيًا شاملاً متكاملاً لتغطية احتياجات عملاء الشركة، وتلبية مطالبهم والاستجابة لتوقعاتهم من "مجموعة النيل العربية".

ولسرعة تنفيذ ذلك، سنقوم بتزويد الموقع بكل المعلومات الخاصة بالشركة وإصداراتها في كافة المجالات. وسوف يتاح للقارئ عملية شراء الكتاب الورقي وتوصيله من البيت للبيت داخل مصر وخارجها.. مع إمكانية السداد النقدي عند الاستلام أو الدفع من خلال البطاقات الائتمانية.

كذلك، ستتيح الشركة إمكانية شراء إصداراتها إلكترونيًا والاحتفاظ بها للقراءة سواء على أنظمة أبل أو أندرويد، وسداد القيمة أيضًا من خلال البطاقات الائتمانية.. هذا بالإضافة إلى تقديم خدمات أخرى عديدة سوف تكون مفاجأة سارة لجمهورنا العزيز بإذن الله. وسوف يتاح هذا التحديث على الموقع الإلكتروني للشركة: "www.arabnilegroup.com" خلال 4 شهور بإذن الله.

✹محمد الجابري، ما الذي يحبه ويكرهه؟

أنا إنسان بسيط للغاية.. أحب الخير لكل البشر، وأحب أسرتي جدًا، وأحب بلدي جدًا..

ولكن في المرحلة الحالية، أستطيع القول إنني أكره مزدوجي الشخصية والمتلونين والمتطفلين على كل الموائد وكل من يحاربون بلدي ويحاولون تدمير أرض الكنانة المحروسة برعاية الله "مصر".

✹كلمة أخيرة للناشر محمد الجابري.

دعوتي وبكل صدق.. أن يحفظ الله مصر وسائر بلداننا العربية والإسلامية من كل مكروه، وأن يجمع شمل بلداننا العربية تحت راية واحدة توحدها ولا تفرقها أبدًا، وأن تعود هذه المنطقة العزيزة علينا جميعًا واحة للسلام والأمن والرخاء العميم على كل ربوعها بإذن الله.

مع خالص دعواتي بأن تسود "ثقافة الحب والسلام والتسامح" بين شعوب كل بلد وسائر البلدان بإذن الله.